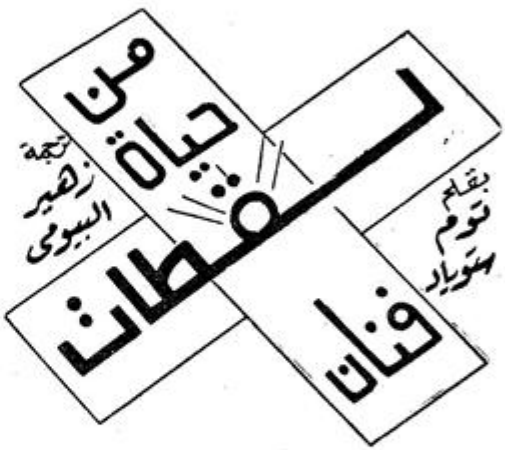

كل انسان يرتكب حماقات كثيرة فى مستهل حياته العملية ؛ ولابد أنك ، يا عزيزى ، واحد من هؤلاء ، ولست أقول « لابد » لأننى — أيضا — واحد من هؤلاء ، وانما أقول ذلك لأنها سنة الحياة .

قتلت امرأة فى الأسبوع الأول من بداية حياتى العملية ، وكان ذلك ناتجا عن سوء فهم للموقف ، اذ كنت جالسا وحدى فى مقر عملى بالجريدة ، بعد ظهر أحد أيام السبت حين جاءنى مسئول من مكتب المباحث وأخبرنى أنه قد عثر على تلك المرأة فى نفس المكان الذى اختفت فيه وظننت أنه يقصد القول بأنه قد عثر على الجثة ، وكتبت الخبر على هذا الأساس وفى اليوم التالى دق جرس « التليفون » فى مكتب رئيس التحرير وتحدث نفس رجل المباحث قائلا لرئيس التحرير ان السيدة التى نشرنا خبر العثور على جثتها لا تزال على قيد الحياة واستبد بى الرعب ودخلت الحمام كى أغسل وجهى محاولا أن أبدو طبيعيا ، ولكننى خرجت منه وقد ازددت رعبا فقد كنت أعلم ما يترتب على نشر اعتذار فى اليوم التالى فى صدر الصفحة الأولى عن خبر كنت أنا المسئول عنه أمام رئيس

التحرير ... الفصل من العمل ، وخاصة أننى ، كما سبق أن قلت ، لم يكن قد مضى على التحاقى بالجريدة اكثر من اسبوع ، وبعد يوم واحد حدث ما يثير الدهشة .. ماتت هذه السيدة فى ظروف غامضة ، الشىء الذى سرنى واعاد الأمور الى مجراها .. كان هذا قبل أن تكتمل خبراتى الصحفية بالطبع .

استولى عليه الضحك لحظة وهو يقول ان أقرب فخ وقع فيه ـ حسبما تسعفه الذاكره ـ كان حين استدعى لمقابلة رئيس تحرير (ايفيننج ستاندارد) اثر خطاب ارسله فى الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب ، طالبا الحاقه بوظيفة فكان الحظ حليفه .

ظل لا يشعر بحاجة ملحة فى التحرك نحو العاصمة « لندن » ، وكان من رأيه أن يفعل كل ما يرى أنه فى صالحه فبدأ يشعر بالخجل من نفسه التى ارتضت العمل فى الأقاليم حتى الخامسة والعشرين من عمره .

كان رئيس تحرير صحيفة « الايفننج ستاندارد » رجلا مسنا ورغم ذلك كان هيئته لا تبعث على الخوف الشىء الذى طمأنه فجعل ينصت الى اسئلته ويجيب عليها .

ـ هل لك ميول خاصة ؟ .

ـ ميول .. ؟ .. آه .. نعم .. أميل الى القراءة .

وظن رئيس التحرير أن سؤاله قد فهم على غير ما يريد فاستطرد قائلا :

ـ اقصد .. هل لك اهتمامات سياسية ؟ .

ـ آه .. نعم .

ـ اذن من هو وزير الخارجية ؟ .

وتتابعت الأسئلة بعد ذلك حتى وصلت الى القانون ، وانواع المحاكم ، واختصاصاتها ، وقرر هو بينه وبين نفسه أنه أمام امتحان عسير ... لقد قال ان له اهتمامات سياسية ، ولم يقل ان السياسة قد ملكت عليه تفكيره ، .. وقال بينه وبين نفسه ان بوسعه أن يجعل وزير الخارجية من يشاء فى قصة يكتبها هو .

استيقظت على منظر الساحل صباح اليوم الأول ، ولازمنى الاحساس الذى يولده فى النفس منظر الرمل القاتم قبل شروق الشمس ، وراحت هى تسير على شاطىء البحر ممسكة حذاءها باحدى يديها .. وكان قد مضى بعض الوقت ، منذ كنا فى « مرابلا » ، تلك المدينة التى كان يطلق اسمها على المنازل القديمة الفضية الطلاء الواقعة فى سفح الجبل ، وقبل أن يطلق على الحانات والنوادى التى على طول الطريق الساحلى ؛

استغرقت رحلتى الى ذلك المكان عشرة أيام لم أشعر خلالها بمرور الوقت ، وتركونى أعانى الوحدة من « أثينون حتى « نارابون » . وبعد أن اغلقت المقاهى أبوابها بدأ المطر ينهمر فى ميدان « نارابون » وعلى الأشجار ، وعربات النقل الثقيلة مندفعة نحو الشمال ، تتلألأ أنوارها خلال المطر .

وأتى الصباح .. كان الجو حارا فوق الجسر ، وعبر الطريق الطويل الممتد بين مزارع العنب وراح يشاور للعربات لعلها تقف ، وتوقفت له سيارة فاخرة كانت فى طريقها الى « برشلونة » واندفع الى داخل السيارة التى راحت تنزلق على طول الساحل لتشق مدينة «مالاجا» التى تبدو وسط الجبال المحيطة بها عارية بنية اللون ذلك اذا ما نظرت اليها بطرف عينك .

ووصلت الى جبل طارق ، وهناك تعرفت على تاجر هندى لو تذكرنى لكان من الممكن أن ينفحنى بمبلغ من المال .

وفى « مرابلا » تغيرت اشياء كثيرة والشىء الوحيد الذى لم أكن أعرفه عنها هو أن الأثرياء فى العادة ، لا يستيقظون مبكرا .. وفيما بعد حدثت أشياء كثيرة .. لنفرض أن هذه الفتاة لم تكن هى التى أريدها ، فلا بد أنها فتاة تشبهها .. ولكن هذا مستحيل .. ومع ذلك فلا بد أنها واحدة منهما .

كنت فى السابعة والعشرين اذ ذاك .. تماما .. وكان هذا بداية شىء آخر .. كنت أقف فى البحر وكان الماء يصل حتى سرتى ، حين تذكرت أننى لم أبلغ بعد السادسة والعشرين من عمرى ، وأيا كانت الآمال المرجوة فى هذه السن فقد ضاعت بين أمواج البحر .. كنت ـ دائما ـ أقامر بعمرى .. كانت الأيام والسنون تمر سراعا .. هانذا فى السابعة والعشرين مع قدوم الموجة التالية .. ان السنين تمر بسرعة المد والجزر ، ومع هذا فالحياة لذيذة ، واننى أقرأ معظم الليل ، واذا لم أكن دائب الشكوى فانها ستصحبنى فى رحلة الى الشمال فى الشتاء .

وفى سن الرابعة والثلاثين راح يتجول فى أرض معركة مليئة بالضحايا من الأبطال الجرحى الذين أجهز عليهم الواحد تلو الآخر ليريحهم من عناء الشعور بالألم . استغرق ذلك منه ثلاث دقائق وكانت زوجته تجلس أمام المرآة فى حجرة النوم لتزيل آثار الزينة الباقية على وجهها منذ الصباح ، وقد استغرقت فى ذلك وقتا أطول من الذى استغرقه زوجها فى الاجهاز على أولئك الضحايا .. قال بصوت متغطرس : « أنا لا أقول أن كتابات «بلزاك» كانت رديئة وقت كتابتها وانما أقول انها رديئة الآن .. أما ماكتبه « فلوبير » فقد ظل رديئا منذ كتابته حتى اليوم ، وأما « ستاندال » فكانت كتاباته اردأ فى نظر معاصريه منها فى نظرنا ، الشىء الذى لا يقره أحد .. وكان رأى « وايلد » فى « هنرى چيمس » صائبا ... ومع أن « وايلد » كان من أكثر المثقفين حكمة فقد بخل بحكمته على الحياة .

... وأما العذارى من آل « برونتى » المريضات بالسل فكن خليقات بتوجيه مواهبهن الى الكتابة فى الشئون المنزلية والنسوية ، .. وأما « تاكارى » فكان مرحا أكثر من اللازم ، .. وضحك

لفترة ثم امسك عن الضحك فجأة الشيء الذى استرعى انتباه زوجته ، اذ كان ضحكه وتوقفه المفاجيء عن الضحك مفاجأتين متلاحقتين ، ولكنه لم يعبأ بذلك ، وراح مسترسلا فى اصدار أحكامه : « أما « تولستوى » فكان يفتقر الى الأسلوب ، « وتورچينيف . ليست له آراء فيما يكتب ، «وبروست» لم يعرف متى يعتزل الكتابة .. حقا لا يوجد كاتب معاصر يضاهى « چويس » اذ لا يمكن أن نضع «لورنس» الذى كان رديئا فى كل ما كتب الى جانب « چويس » .. « كافكا » نال تقديرا فوق ما يستحق وان كنت لا تصدقنى ارجع الى ما كتبه « ادموند ولسون » أما ما كتبه « جيتسباى » فكان نكتة لا تستحق التسجيل ، ولكى تصدقنى ايضا ارجع الى ما كتبه «مانكن» ، واما « همنجواى » فكان مراهقا متحذلقا ، ولعل ما يؤيدنى فى كل ما قلت ما كتبه « دوايت ماكدونالد » .. كتب يقول : « القمم لم تعد صالحة لعصرنا هذا .. فما كتبوه كان لعصرهم ، وأما ما نكتبه فلعصرنا نحن » .. وانحنى مقتربا من وجهها ثم قال بصوت أجش : « اسمعى اننى أعرف ما أقول وما أفعل .. كل هذا من أجلك » .

وفى وحشية وبلا خجل همس بشيء لون همسه بلون الفحيح « أنا .. اشعر .. اشعر بحاجتى الى شيء » . ونهضت هى محاولة ألا تواجهه رغم الظلام الذى كان يحول بينهما وراحت تقول : « لا .. أرجوك .. وأرجو الا يغضبك امتناعى عنك هذه الليلة فاننى لا اشعر باى رغبة هذه الليلة » .

انى أفكر جديا فى النهوض من الفراش الآن ، رغم أن هناك شيئا

لا يزال يؤرقنى ، ذلك أننى لا أستطيع أن أتذكر ما اذا كنت قد نسيت أداء صلاتى بالأمس أم أننى تذكرت وقررت الا أصلى .. ان هذا لا يهم .. ذلك اذا كان هناك شيء اهتم له .. لقد تذكرت الصلاة بعد فوات الأوان .. وهل هناك من يحصى علينا صلاتنا ، .. خمسون سنة .. لم أقم فيها الصلاة الا فى ساعات الشدة التى كانت تعترض حياتى ، وقد مضت ، على كل حال .. حوالى خمسة آلاف ليلة نسيت أن أصلى فيها ، أما الباقى فقد قررت الا أقيم الصلاة فيها ، ولذا كان على ان أتذكر الصلاة فى الثلاثين سنة القادمة ، لو ظل الحال هكذا .. مستحيل ، فان دوام الحال من المحال .. « لا تيأس فقد نجا احد اللصين .. ولا تتجبر فقد حلت اللعنة بأحدهما » .. هذا جميل ، أعتقد أنه من كلام القديس « أوجستن » .. كلام جميل ولكنه لا يفيد .. يجب أن أنظف الحجرة .. يا الهى ما هذه الفوضى !!؟ ربما أرقد هنيهة أخرى .. فى هذه الأمسية سأحاول أن أجدل حبل أفكارى واشحذ همتى مرة اخرى لأكتب شيئا ، وبعد ذلك سانزل الى النفق لأركب القطار الى لندن حيث الشباب المتجدد بمرور الزمن ، .. ربما كنت أنا أقرب الشباب فى لندن الى الكهولة .. قد يصبح المرءوس ذات يوم رئيسا لمن يرأسه أيا كان ، .. الكلمة المركبة تتساوى بالكلمات البسيطة فى مكتب

البرق .. هه هه هه ... معظم الناس يشعرون بالملل فى النهار ، ولكنى أجد انه من السهل على قضاء النهار بعكس ما يحدث لى بالليل .. يا الهى ارزقنا كل يوم بحاجتنا من الصحف اليومية ، واغفر لنا تدخلنا فى شئون الناس .. انا آسف لأنى ازعجتك فى مثل هـذا الوقت ، ولكن متى قضت على وجه التحديد .. ؟! .. « لا .. لا شيء البتة اننى أعرف أيهـا الفتى أن عليك انت وزملائك واجبات يجب أن تؤدوها .. لقد مضى على ذلك حوالى ثلاثة عشر عاما وشهران » .. يا الهى ارزقنا الاحساس وخلصنا من النعيمة ... تذكرت .. بالأمس لم انس صلاتى ولم اقرر تركها .. بدأت الصلاة ثم رحت اصارع اليأس حتى قضيت عليه بطريقة ما .. لا اذكرها .. ولكننى اذكر اننى وجدت نفسى وقد توقفت عن الصلاة فجأة .. يا الهى اننى أكاد أموت غرقا فى عقيدة من قيل انه سار على صفحة الماء ولم يغرق .. هذه العبارة السابقة لا بأس بها .. يمكن أن أحشرها فى قصة اكتبها .. عندما يسألنى الناس عن حرفتى أقول لهم اننى كاتب .

ان الكاتب فى حاجة ماسة الى التشجيع ، ولكنه كلما كان بعيدا عن النشر كلما أصبح أقرب الى الله .. علينا ان نختار واحدا من هذين : الناشر أو الله حاول أن يقاوم رغبته فى اختيار الله ، لأن رغبته فى ارضاء الناشر كانت تفوق كثيرا رغبته فى نيل رضاء الله ، اضف الى ذلك انه لم يكن واثقا ما اذا كان يؤمن بالله أم لا ، وفكر فى أن يضرب عصفورين بحجر واحد فوضع الآلة الكاتبة أمامه وراح يتعبد .

وذات يوم تلقى من الناشر بطاقة الرفض رقم ١٢٧ ، وفجأة رأى نور الله واضحا فجثا على ركبتيه وصاح فى غبطة : « يا الله .. يا حبيبى .. لقد رأيت نورك ، فاغفر لى سابق عنادى ، وتأمل خشوعى لك من الآن ؛ سأنبذ ملذات الحياة ، وساجعل نفسى تحت امرتك ، وفى خدمتك على الدوام » .

وسمعه الله وأرسل ملاكا الى الكاتب وهو جاث على ركبتيه ليقول له : « ان الله يشكرك ويبلغك ، مع الأسف ، أن خدماتك ليست مما يناسب مملكته السماوية .

وحدث أن اكتشف الجثة أشهر نقاد العالم ، فقد عثر على المذكرة التى خطها الكاتب قبيل شروعه فى الانتحار ، ولم يستطع أن يغض البصر عنها وانما صاح وهو لا يكاد يصدق حظه : « واحد آخر فى اسلوبه فكاهة « جوجول » ولوذعية وقلق « كافكا » وشفافيته .. الخ .. الخ .. الخ .. لقد عثرت على الجسم الفنى .. العبقرية المغمورة ، وبهذا أكون قد اكتشفت خمسة .. اثنان فقط يرجى منهما وهذا أول الاثنين » .

قال هذا وهو يقلب منقولات البيت رأسا على عقب باحثا عن بقية أعمال هذا الكاتب ، وقد عقد عزمه على أن يتعهده حتى يرقى به وبنفسه أعلى مراتب الشهرة ؛ ومن فرط هلوسته راح يصيح فى جنون مفاجىء : « أنا ـ كما تعرفون ـ مكتشف فلان الفلانى الكبير .. فتحت الباب وفجأة كان أمامى » .